المساواة

(١)

الطبقات الاجتماعية

اصل الخليقة في الميثولوجية الهندية ان بيضة الذهب الحاملة برهما كانت تطوف على وجه الغمر عندما انطلق منها الاله فانفلقت قشرتها فلقتين كوّنت إحداهما السماء ،وكانت الارض من الاخرى . ونشر برهما الاثير بين الارض والسماء . ثم خلق الكواكب والنبات والاشجار والحيوان فتهيأت الارض لسكنى النوع البشري . إذ ذاك سحب من رأسه رجلاً يُدعى برهمانا وسلّمهُ « الفيدا » او كُتُب الهند المقدّسة مستودع الحقيقة الخالدة ؛ ومن برهمانا هذا ولد البراهمة الذين عُهد اليهم في نشر الديانة وتعزيز اصولها. ثم اخرج برهما من ذراعه اليمنى محارباً يُدافع عن الكاهن ويقيه منيع الحوزة حميّ الذمار . واستلّ من فخذه رجلاً ثالثاً هو الفلاّح الذي يهيء للجندي وللكاهن الغذاء ، والتاجر الذي يسهل امامهما وسائل الحياة ويضمن لهما موارد الرزق والثروة. واخيراً انتزع من قدمه المقدّسة رجلاً رابعاً هو ابو الصنائع وزعيم طبقة العاملين للآخرين . ومن هذه المخلوقات الاربعة المخترجة من جسم برهما تسلسلت شعوب الهند بطبقاتها الاجتماعية ، تضاف اليها طبقة الاسافل المتشردين (وما هي إلاَّ حثالة الطبقات الاخرى) المختلفة عن ابناء برهما بما توعزهُ من رعب واحتقار لانها خلاصة القبح والتعاسة

لقد ارتفعت قيمة الفكر الهندي في هذا العصر ارتفاعاً كبيراً بما يرمي اليه من حقيقة علمية فلسفية وراء اسلوبه الشعريّ ومظاهره الخيالية . ومغزى هذا الرمز الى الخليقة ان البشر وان كانوا ابناء اله واحد ، مخلوقين على صورة واحدة يستمدون الحياة من اصلٍ واحد ، ويُعجن جسمهم من طينةٍ واحدةٍ تتماثل بها احتياجاتهم ورغباتهم ، الاَّ انهم في الوقت نفسهِ اسرى التنوّع تكييفاً ، اسرى التنوّع قهراً . يتقدّمهم هذا التنوّع الاوليّ فيحبو كلاًّ منهم ، وكل طائفة منهم ، كفاءةً تختلف عن كفاءة الآخرين ويودعهم براعةً وحذقاً يتساويان قوةً عند كل جماعة وان تميزا مظهراً طبق العمل المطلوب

وهل للاجتماع من انتظام لولا تنوّع الطبقات وتنوّع الكفاءات؟ وهل تبدو طلائع المدنية بلا تقسيم العمل طبقاً لقابلية افراد وجماعات ينجحون في فنّ ويرسبون في فنّ آخر؟ وأنى لنا العلماء والفلاسفة والفنانون والابطال والاختصاصيون في كل صنعة لولا التميز والاختلاف؟ فلو أبدنا التنوّع في اصوات الخليقة بحذف درجات السلّم الموسيقيّ السبع لابدنا فنّ الموسيقى بحذافيره ولما بقي لحاسة السمع سوى نغمة منخفضة تطرد الاستمرار على وتيرة فردة. ولو لاشينا الالوان السبعة من التحليل الطيفيّ لفقد الشعاع خواصه وانتهت بنا واحدية اللون الى الظلام. ولكن في الظلام نفسه درجات لانهُ محبوك الطرفين بالشروق والغروب. أليس ان الشفق غير الغلس، وان هذا وذاك غير انتصاف الليل الادهم؟

ليس امامنا سوى الكثرة والتعدد عند ما نفتح انظارنا على الكون فنرى الكواكب متألقةً في فضاء يحتويها، ونرى الماء واليابسة، والجبال والوهاد، والاشجار والصخور، والمروج المخضبات والصحارى انفاحلات، فضلاً عن صنوف الحيوان. ثم لا نلبث ان نرد جميع هذه المظاهر الى اصول او انواع كبرى ثلاثة هي النوع الجماديّ، والنوع النباتي، والنوع الحيواني الذي يتناهى ارتقاء ودقةً في الانسان المدرك المرغم على تمثيل دوره في مأساة الوجود لانهُ جزء من هذا الوجود وتسري عليهِ جميع نواميسهِ ان راضياً وان مكرهاً

وكما ان الحياة الجمادية في دورها الحيولي تكون كتلةً عظمى لم ينسقها التكييف صوراً واشكالاً كذلك البشر في هجيتهم كلٌّ متماثل لا تنظمهم المراتب ولا كبير منهم ولا صغير. وهذا شأن بعض القبائل المتوحشة في افريقيا وبين هنود امريكا الى ايامنا. هم يعيشون جماعات صغيرة ولا شاغل لهم غير ما يشغل الحيوان الاعجم. الاّ ان لكثير من قبائل الحيوان فروقاً اجتماعية، فعندها الملكية المطلقة، والارستوقراطية، وثورية تتطلع الى الهدم، وغيرها يطلب المساواة، وبالجملة فان قضيتها الاجتماعية تكاد تشبه مثيلتها عند النوع البشريّ. وقد تسهل مراقبة هذه الفروق بين حيوان المنازل كالنمل مثلاً الذي يظهر عندهُ تقسيم العمل ظهوراً تاماً. فمن اعضائهِ العامل المنتج، ومنها المحارب المدافع، ومنها العبد الرقيق. وبعض العشائر تغزو بعضها فتقهرها وتستعبدها اذا تعاملها برفق ولين

***

ابتدأ دور تكوين الشعوب بانتشارها قبائل يتقارب منها الجوار بتقارب الاصل ، ولكل قبيلة وسائلها الحيوية في موارد موطنها الطبيعية التي هي بدورها ربّت في اعضاء القبيلة ذكاء ومهارة موافقة لاستخدامها . فاصطنعوا لانفسهم تلك الادوات الحجرية والفخارية ،واخترعوا القوس والنشاب ،وآلات حرث الارض وطريقة فلاحتها واكتشفوا النار ووسيلة اضرامها . وكانوا يشتركون في استعمال هذه الادوات والآلات عند الحاجة لانها ملك الجميع الذي كان يعمل له كلُّ فرد تحت مراقبة زعماء اكفاء ويُضمن له مقابل تعبه السكن والقوت والكساء في حالتها الفطرية الاولى . وينجلي من هذا ان الاشتراكية سبقت كل نظام آخر في حياة البشر . ومع ان هذه الاشتراكية مشوبة بخلل وعيب كثير الا انها حسنة بالنظر الى زمنها ولانها اول خطوة في عالم النظام والتدريب وقد لاحت فيها اول بارقة من بوارق النبوغ الذي سيكشف اسرار الطبيعة ويتغلب على عناصرها في العصور التاليات

تطوّرت حياة القبائل قليلاً ونمت مدارك الافراد فيها فاتجهت تدريجياً نحو غاية واحدة وهم لا يعلمون . فتلك التي قطنت المروج اقتنت الغنم والخيل بعد تأنيسها ونظّمت القطعان للانتفاع بخيراتها من حليب وما يتأتى منهُ في حياتها ، ومن جلد وصوف بعد ان تنفق ، فتوفر لديها من ذلك ثروة طائلة . فطمعت في توسيع فلاحتها طلباً لثروة اعظم وكان ذلك سبباً لاختلاف القبائل فيما بينها على مسألة الحدود . فقامت المناوشات والمعارك ، وانتصر هذا واندحر ذاك ، فشعر الغالب لاول مرة بنشوة « السيادة » ونهبت القبيلة المغلوبة وضمّ اعضاؤها الى القبيلة الغالبة الا انهم كانوا يحسون بفرق مبهم جليّ بين الجماعتين وبكآبة مقابلة لنشوة « السائد » ولم تكن تلك سوى كآبة « المسود » . وهذا منشأ الاوتوقراطية والرق

وجرى مثل ذلك على صورة تقريبية في الاودية الخصبة حيث عنيت القبائل بزراعة صنوف النبات والاشجار . وخوفهم من غارات القبائل المجاورة دفعهم الى انتخاب زعماء حربيين يهيئون خطوط الدفاع ازاء هجمات العدو . فارتفع هؤلاء الزعماء مع الوقت الى درجة سادة يسيّرون الفلاحين ويتقاضونهم بدل

الارض التي يزرعونها لحاجتهم ، ويفرضون عليهم الضرائب . الى ان انشأوا الرق في املاكهم من سلائب العدو وغنائم الحروب

كذلك عند مصبّ الانهار . فان القرصان استوطنوا الشواطىء ليسهلوا العلاقات والتبادل بين الفلاحين وقبائل الجبال ، ولما وقفوا على رغب الفلاحين ورغبتهم في صد الغارات عن حياتهم الهادئة نظموا قوة محاربة وانقضوا كالصاعقة على الضعفاء فسادوهم وانقلب الاحرار عبيداً

ثمّ ما يشبهُ هذا بين القبائل القديمة يقودها جماعات وأفراداً ذلك الشعور العريق في قلب الانسان وهو الطمع في السيادة والسعي الى التفوّق . وسرعان ما عثروا على عماد السيادة وهو الملك ، أو رأس المال كما يسمونهُ بلغة هذا العصر . وهذا الملك لم يكن ليتأتى إلاّ من الذكاء والمهارة او الامتياز بصفة أو كفاءة خاصة . فاخذوا يمتلكون الاراضي ويحشدون الثروة من المواد المنظور اليها كثروة في ذلك الحين . وكان ذلك الفصل الاول من تاريخ الاقتصاد البشري الدائر كلهُ حول ذلك الطور الرهيب الذي يدعى الملك . فالحصول على الملك ، والاحتفاظ بهِ من جهة ، والرغبة في نزعهِ من جهة اخرى سببت هذا العراك المالي والاجتماعي الذي لا ينتهي . هو كوّن الارستوقراطية والعبودية ؛ هو سبب المجازر والفظائع ولاجلهِ شبت الحروب ، ونشبت الثورات ، ودكّت الحصون ، ودُمّرت أجل آثار العمران . لاجلهِ تشكلت الاحزاب العديدة : فهذه ديموقراطية ، وهذه جمهورية ، وتلك اشتراكية وغيرها فوضوية . ومنها القائل بتمتع الفرد بأملاكهِ ومنها المرتئي بجعل الملك مشاعاً للجميع ، ومنها الضاحك من كل حزب بتفجر القنابل وهدم الصروح وإزهاق الارواح . وقد أدّى التزاحم والتقاتل الى انتشار الاقوام فسموا في الارض يروّجون تجارتهم ويكثرون أرباحهم ليحفظوا لهم المكانة والوجاهة في جماعتهم ، وتوطّد بالتبع نظام الوراثة لان السيد العظيم كان يشرك اولادهُ في ادارة الاملاك فيتمرّن عادة الولد البكر على فنّ الادارة والحكم وينتهي اليهِ حق الارث الاكبر

***

ويبدو ان الاب كان يعامل أفراد عيلتهِ كمعاملة زعيمهِ لهُ ، فان ظالمهُ ظلمهم وان انصفهُ كان لهم منصفاً . وكذا تكوّنت الارستوقراطية في داخل الاسرة في

حين كانت تتكوّن في الجماعة أو في الدولة . فكانت الارستوقراطية أو الإشراف يشمل عميد الاسرة ووالديه ، ويليهم اعضاء الاسرة الآخرون ، وتلي هذه درجة الخدم أحراراً وعبيداً . فهاك بلاد اليونان مثلاً في زمنها الاقدم ، اي العهد الملكي المطلق ، حيث نجد طبقة مؤلفة من جميع رؤساء الأسر وهم في الغالب نبلاء كالملك نفسه وينتسبون للآلهة مثله ويحملون لقب « ملك » . لذلك يذكر هوميرس ملوكاً كثيرين في مدينة واحدة ، يجتمعون لدى الملك ليسدوا اليه النصح في شؤون الدولة او ليسدّوا له إرادتهم . وكانت الطبقة الثانية من ذوي القربى لاولئك الزعماء وهم ارستوقراطيون ولادةً وحقوقاً يملكون الاراضي أحراراً او يتمتعون بنتاج اراضي الاسرة المشتركة . وإن لم يكونوا يحضرون اجتماع الملوك فانهم كانوا اعضاء جمعية المواطنين العمومية وخضوعهم الوحيد في امتثالهم لكبير الاسرة بينما هذا لم يكن ليمتثل لغير الملك . وتؤلف الطبقة الثالثة من خدم البيت المنقسمين الى عبيد والى معتوقين وعدد هذه الطبقة قليل لان العمل اليدوي لم يكن محتقراً ولم يكن ابناء « الملوك » ليترفعوا عن فلاحة الارض ورعي المواشي . وكان هناك طبقة أخرى تحوي من لم يكن يخص اسرة كبرى ، واهل الصنائع الدنيا والعمال والشحاذين وقطّاع الطرق وأمثالهم

وتميزت مع الزمن الفروق الاجتماعية واكتسبت كلٌّ من الطبقات صفات تنسبُ اليها وعيوباً خاصة بها . وتجبّرت الطبقات العليا في محاولتها الوهمية وحسبت نفسها من طينة مختلفة عن طينة الآخرين لها من القابها وثروتها وامتيازاتها ما يفتح لها أبواب الالوهية على مصراعيها . وغا الادراك وفور الشخصية في الطبقات الاخرى شيئاً فشيئاً حتى وصلنا الى حيث نحن اليوم . إذ لا بد بين البشر من تبادل المنفعة والتضحية : فاذا انتفع قوم دون ان يضحّوا شيئاً كانوا مغتصبين ظالمين ، واذا كانوا كثيري التفادي قليلي الانتفاع كانوا مظلومين مهضومي الحقوق . ولئن اختفت المصلحة الذاتية وراء جميع الاعمال فهذه المصلحة أو الانانية موجودة بصورة خاصة في جميع اجزاء الكون كانها عنصر جوهري لحفظ الوجود

إنّ النوع البشري وان امتاز عن الطبيعة المحسوسة بطبيعته الادراكية والاخلاقية والروحية فهل يظل مربوطاً بها بجسمه واحتياجاته المادية خاضعاً لجميع نُظُمها وفي ميوله ميول وحشها فهذا قرد وذاك ثعلب وذلك عقرب والآخر

ثعبان . واما التنوع بين الطبقات وبين الافراد وبين مظاهر الطبيعة فهو أصلي ولولاهُ لما كانت الخليقة . وأُرجّح ان افلاطون يوم كتب « جمهوريتهُ » ضرب صفحاً عن هذه الحقيقة التي لا أدري كيف استطاع إغفالها

لقد طال تأمل روسو في حالة البداوة الاولى وقام هو واتباعهُ ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية على الهناء المفقود وترتع في بحبوحة الراحة والسلام والحرية . وقد نسوا ان الهمجيّ مستعبدٌ بجهلهِ الفادح وان لهُ من الخرافات سجناً لعقلهِ ومن الاوهام مطفأة لنور روحهِ ، فهو وان كان حرًّا حرية نسبية من حيث علاقتهُ بامثالهِ وبقناعته — التي لا يمكن ان تدوم اكثر من زمن ما — فهو أسير أحطّ انواع العبودية وأخطرها . وهيهات الرجوع الى الماضي ! إذ ان عودة النظام الشمسي المندفع بسياراته واقماره نحو النجمة الكبرى من كوكبة الشلياق — قلت ان عودتهُ الى حيث كان منذ مائة الف سنة توازي في نظام الكون تجريد النوع البشري مما اكتسبهُ بالالم والخبرة والبطش خلال تحدُّر الدهور . خلقنا قوة نجهلها وتتجاهلنا ، هي قوة الحركة الدائمة في جميع مناطق الحياة ، تدفع بنا ابداً الى الامام نسمي سيرنا ارتقاء . وقد يكون الارتقاء المزعوم تقهقراً في نقط شتى . وما لا مهرب منهُ هو السير المرغم ، هو التحرك المتواصل ، هو الاستطراد الذي لا راحة منهُ قبل القبر ولا وراءهُ

يتعذر علينا فهم ما هو « الوراء » وما هو « الامام » في معاني المكان والزمان والذهن ، وعلى رغم ذلك يمكن القول ان اتجاه التاريخ البشري امامي بمعنى التقدُّم والتحسن وان كثرت حركاتهُ الرجعية واللولبية . « الى الامام ولو على الجثث ! » ليست كلمة حماسة شعرية قالها غوتي الالماني فحسب وانما هي صوت الخليقة الفاهر ، هي صوت توالي الاشياء وتناسخ الموجودات ، وانبثاق الحركات من الحركات ، والذراري من الذراري ، والانظمة من الانظمة

لا بدَّ من تنوع الصور وتعدُّد الطبقات . فلولا التنوع والتعدد ما كانت المدنية ولا كان الوجود الحسيّ . ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم وارهاف القوى والتسابق الى الاولوية لكفى لتقبلها ومحاولة عبورها بما اوتينا من عزم وكفاءة . والفوز للاصلح دواماً (مي)